الكلاب تنبح القمر

عبد الغفار مكاوي

الكلاب تنبح القمر

تأليف
عبد الغفار مكاوي

هنـــداوي

الكلاب تنبح القمر

عبد الغفار مكاوي

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٢ ٣١٩٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الدكتور عبد الغفار مكاوي.

المحتويات

الشخصيات	٧
المشهد الأول	٩
المشهد الثاني	١٧
المشهد الثالث	٢١
المشهد الرابع	٢٧
المشهد الخامس	٣٣
المشهد السادس	٣٩
المشهد السابع	٤٧

الشخصيات

- الغريب.
- مُعلِّم الأطفال.
- زوجته.
- ابنه.
- ابنته.
- المحقِّق.
- المخبر.
- ناظرة المدرسة.
- أمير المدينة «يُسمع صوته فقط».
- (أطفال – نساء ورجال عابرون – نباح كلاب – ضحكات ...)

(فكرة المسرحية مُستوحاة من قصة قصيرة للكاتب الفنان عبد الرحمن فهمي بعنوان «المسعور»، وقد نُشرت في مجلة الهلال قبل أكثر من عشر سنوات، وظلَّت تنمو في وجداني وتتشكل منذ ذلك الحين وتَستكمِل مشاهدها وشخصياتها وإيقاعاتها حتى ظهرت على هذه الصورة. إنها قصة مُعلِّم أطفال مسكين، قضى حياته المتواضِعة الكسيرة مثالًا مُتجسِّدًا ومغمورًا في الوقت نفسه للقيم التي اختلَّت ثم انعدمت في مجتمع مدينة أصابها سعار الاستهلاك وجُنَّت جنون الأنانية، وتنكَّرت لكل ما هو إنساني أو يمتُّ للإنسان بسبب. ويُصاب المعلم المسكين بمرض الكلب، مع أنَّ المدينة — كما يُعلن أميرها — خالية من الكلاب. هل أُصيب المعلم بعدوى من خارج المدينة التي لم يُغادرها في حياته؟ أم من

سكانها الذين تكلَّبوا على الرغم من اعتزازهم بخلوِّ مدينتهم من الكلاب؟ وهل هو الكلب الوحيد في المدينة أم هو الإنسان الوحيد؟ أسئلة كثيرة تطرحها مِحنة أخيرة. والإنسان قادر على تجاوز المِحن إن أراد. فهل تقدر المدينة على تجاوزها؟)

المشهد الأول

بداية الحكاية

(مكان خالٍ، يُملأ باستمرار بقِطَع ديكور بسيطة تُناسب المشهد ثم يُفرغ منها لمشهد آخر جديد. ضوء القمر غلالة فضية ساحرة ترفُّ أجنحتها على كل شيء. يُسمَع نباح كلاب بين الحين والحين. يَدخل الغريب، وهو رجل نحيل وطويل، في ثيابٍ تُشبه خِرَق الصوفية والفقراء وشُعراء العصور الغابرة، يُخاطب الجمهور ويشترك عند الضرورة في أداء دور أو أكثر، ويُعلِّق على ما يحدث أمامه أو يُبرِّره أو يثور عليه، ولكنه في النهاية لا يعدو أن يكون عابر سبيل غريبًا، يدخل المدينة الصغيرة ويَخرج منها بمَحضِ المصادفة، وكأنه عرَّاف أو رسول جاء بنبأ ثم انصرف إلى حال سبيله.)

الغريب: معذرة ... معذرة يا سادتي وسيداتي ... أريد أن أتكلَّم إليكم فتَمنعني الكلاب ... هل تسمعونها؟ (يتردَّد نباح الكلاب) مع أنني لستُ كلبًا مثلها، ولا كلبة (يتلفَّت حوله ثم ينظر إلى جسمه) أو هذا على الأقل ما أشعر به منذ ولادتي ... ما أنا إلا عابر سبيل غريب ... دخلت هذه المدينة بمَحض المصادفة ... نعم نعم ... هش ... إنها لا تريد أن تسكت كأنَّ بينها وبيني ثأرًا ... شجَّعني على دخولها أنَّ الحراس طمأنوني ... سألوني فقلت لهم: رجلٌ من أهل الله ... ماذا تقصد؟ قلت أسبح بحمده وأتأمل ... قالوا: صوفي أنت؟ ... قلت فقير أسعى في الأرض ... قالوا: الخير كثير ... ما دمت لا تنبح ولا تعض ... قالوا أيضًا: مدينتنا بلا كلاب ... كل ما نَحرص عليه ألا يدخلها كلب ... ومع ذلك فها هي

تنبح ... (يرتفع نباح الكلاب) هل تسمعون؟ وما أردتُ إلا أن أحكي لكم حكاية ... حكاية كلب في المدينة التي خلَت من الكلاب ... المدينة التي أمر أميرها — رعاه الله — أن تُباد منها الكلاب ... اسمعي أيتها الكلاب ... اسمعوا أيها البشر ... (يهدأ النباح) لقد هدأَت قليلًا ... (ينظر حوله) لعلَّها يَئسَت بعد أن رأَتْني عظمًا بلا لحم ... أو لعلَّها (ينظر للسماء فيرى القمر) كما هي العادة تنبح القمر ... إنه يسطع في السماء كقطعة لحم طازجة حمراء ... ظلَّت تنبحه حتى أدركت أنها لا تَستطيع أن تعضَّه ... معذرة فقد ظلمتها ... أو لعلِّي أخطأت ولم تَنبح أبدًا ... أكرِّر معذرتي لكم أيضًا ... قلت سأروي لكم حكاية ... حكاية صديق عرفته وأحببتُه ... المفروض أنه الآن يَرقد في المشرحة ... وربما بدأ اللحَّاد يُغسِّله ويهيئه للقبر ... بعد أن أُغلق باب القضية وأُعلن الحكم ... لكنَّني سأستأذنكم وأستأذن قانون الموت فأدعوه ليَمثُل أمامكم ... فالضرورة تقضي بأن نُعيد الحكاية بعد أن مات البطل وتمَّت فصولها ... أنت ... أنت ... يا صديقي (يظهر معلم الأطفال. رجل قصير مُنكسِر في ثيابٍ مُهمَلة قديمة ... يخطو مُتأففًا ساخطًا ... يُجيب على أسئلة الغريب بكلام مُفكَّك تتخلَّله غصة تندُّ عنها بحة أليمة).

غريب: تقدَّمْ ... تعالَ!

المعلم: من يَطلُبني في هذا الوقت من الليل؟

غريب: صاحبك ونجيُّك!

المعلم: ليس لي صاحب. كلُّكم تخلَّيتم عني.

غريب: لا تتسرَّع بالحكم.

المعلم: الحكم صدَر وأعلنه المحقِّق.

غريب: سنُعيد النظر فيه ... أنا وهؤلاء السيدات والسادة (ينحني للجمهور).

المعلم: دعني في حالي ... ألم تتركني راقدًا في المشرحة؟

غريب: الضرورة الفنية أقوى من كل ضرورة.

المعلم: حتى من الموت؟

غريب: حتى من الموت ... هيا ارِوِ حكايتك علينا.

المعلم: ولماذا أرويها وأنت تعرفها؟

غريب: واشتركتُ فيها أيضًا. لكن من حقِّ هؤلاء ...

المعلم: فليدَعوني في حالي.

غريب (يَجذبه إلى مقدمة المسرح فيرى الجمهور): لقد حضروا بالفعل.

المعلم (مذعورًا): دعني ... دعني ... أنا الآن في المشرحة!

غريب: لكنَّ الكلاب ما تزال تنبح!

المعلم: لا لا ... لا تُغضبهم ... لا ترفع صوتك حتى لا يسمعك أمير المدينة ... أنا الكلب الوحيد في مدينتهم ... اطمئنُّوا أيها السادة ... اطمئنوا ودعوني في حالي ... أنا الكلب الوحيد ... أنا الكلب الوحيد. (يَبكي ... يغصُّ بكلامه ... يُهوهو!)

غريب: لا تَقُل هذا ... ولا ترجع للهوهوة أيضًا ... كان هذا قبل أن تموت ... وأنت الآن بحكم الضرورة.

المعلم: ماذا تُريدون مني ... لقد سلَّمت بحكمكم (يئنُّ ويبكي).

غريب: نحن لم نُصدر هذا الحكم عليك (يتجه إليه ويُسكته بحنان).

المعلم: أصدره القاضي والمحقِّق والأمير.

غريب: ونحن سنُعيد النظر فيه.

المعلم: ستعيدون ... هذا فعل يدلُّ على حدوث شيء في المستقبل ... وأنا الآن بلا مُستقبل.

غريب: بل في الحال ... سنبدأ الحكاية في الحال.

المعلم: كل شيء حدث في الماضي ... كيف تستخدم فعل المضارع والمستقبل؟

غريب (يَلتفت للجمهور): معذرة ... إنه مُدرِّس نحو ... وهو حريص على القواعد حتى بعد موته ... ولكني سأستَعمل معه فعل الأمر.

المعلم (يُقاطعه): هو ما دلَّ على حدوث شيء في زمن التكلم.

غريب: أحسنت ... تقدم! ... (بقسوة) قلت تقدم!

(المُعلم يخضع لأوامره ... يمدُّ لسانه ويحاول أن يقعي عند رقبته ويئنُّ ككلب.)

غريب: لا لا ... لم تُصبح كلبًا بعد ... لا تنسَ أنك الآن صديقي ... لا تنسَ.

المعلم (يقف على قدمَيه ... الغريب يجلس على سورٍ حجَريٍّ بجانبه): يوم تعرَّفت عليك؟

غريب: ليلة تعارفنا ... هل تذكر؟

المعلم: نعم ... نعم ... كانت ليلة مُقمرة.

غريب: وبدأت تشكو حالك.

المعلم: لا أحد يحسُّ بي ... لا أحد يُشاركني في شيء.

غريب: وكانت الكلاب تَنبح (يرتفع نباح الكلاب).
المعلم: أذكر ... أذكر ... وقلتُ لك ... كل الكلاب تعضُّني.
غريب: وارتعشت رعبًا وقلت: هل قلتَ الكلاب؟ ... أخشى أن يسمعنا جندي أو مُخبر.
المعلم: وظلَّت الكلاب تنبح (الكلاب تنبح).
غريب: وقلتُ لك ليس في المدينة كلاب.
المعلم: طبعًا ... طبعًا ... وهل كنتُ أجهل هذا؟ مدينتنا والحمد لله خالية من الكلاب ... لا بدَّ أن العيب في أذني.
غريب (يقف للجمهور)**:** لكنني كنت أسمعها ... شككتُ أنا أيضًا في أذني ... مع ذلك قلت له: لا تَكترِث يا صاحبي ... الكلاب دائمًا تَنبح القمر.

(المعلم يَنهض ويتجوَّل في المكان ويَنظر للقمر.)

غريب (يُربِّت على كتفه كصديقَين قديمين)**:** اطمئنَّ ... هذا دأبها منذ الأزل ... أنسيت ما قلته لك؟
المعلم (يَجلس يائسًا)**:** قلت إنها لا تعضُّه.
غريب: تذكر بيت الشعر؟
المعلم: لقد نبَحُوني وما هِجتهم.
غريب (مكملًا)**:** فما أدرَكوا غير ضوء القمر.
المعلم: وما الفائدة؟ الشهود كلهم ضدي.
غريب: سنَسمعهم أيضًا: لن تترك أحدًا منهم ... هيه! ... أنتم.

(يتقدَّم الشهود واحدًا بعد الآخر ... الزوجة ... والابنة ... والابن ... والمحقِّق ... والمخبر ... إلى آخر الشخصيات التي ستظهر تباعًا.)

غريب (مُشيرًا إليهم ومتقدمًا بضع خطوات نحو الجمهور)**:** ها هم الذين حكموا عليه ... لا نُريد أن نَدينهم ... ولا نُريد كذلك أن نُعفيهم من المسئولية ... نريد أن نعرف الحقيقة ... نعرفها للحقيقة والتاريخ ... هذه هي زوجته ... (تتقدَّم الزوجة ناحيته صامتة) امرأة تستقبل سن الشيخوخة.
الزوجة: أنا في الثالثة والعشرين!
غريب: وابنك أيضًا في الثالثة والعشرين ... سنرى هذا بعد قليل.
الزوجة: سمعتُم كلامه ... إنه كلب وابن كلب.

غريب: لا تتسرَّعي ... المدينة حفظها الله وحفظ الأمير.
الزوجة: خالية من الكلاب ... ولكنه كان طول عمره ...
غريب: قلت لا تتسرَّعي ... ابتعدي الآن قليلًا وسنَسمع غيرك.
الزوجة: لن يقولوا غير ما قلت ... أنا أَعرفه أكثر منهم ... كلب وابن كلب ... عاش كالكلب ومات كالكلب.
غريب (بعد أن ابتعدَت المرأة)**:** امرأة شَرِسة ... مع ذلك لن تتسرَّع بالحكم (ملتفتًا للابنة التي تقدمت نحوه في استخفاف وكأنها تُبدي فتنتها) وأنت؟
الابنة: هل تُكلمني؟
غريب (بنفاد صبر)**:** وهؤلاء (مشيرًا للجمهور) يَنتظرون ردك.
الابنة: أنا متُّ من الضحك عليه.
غريب: متى كان هذا؟
الابنة: عندما نبح كالكلب المسعور ... أليس منظرًا يُميت من الضحك؟
غريب: أبوكِ يَنبح فتضحكين؟
الابنة: ولم لا؟ وأسرعتُ وراءه بالكاميرا وأخذتُ له صورًا نادرة.

(تخرج ألبومًا من الصور وتُريد عرضه عليه وعلى الجمهور.)

غريب: فيما بعد ... فيما بعد.
الابنة: أنا صحفية أؤدِّي واجبي ... هل تُريد أن يفوتني هذا المنظر؟
غريب: بالطبع لا.
الابنة: فهمتَني ... أنا أحبُّ الأذكياء (تَعرض فتنتها عليه).
غريب: وماذا فعلتِ بالصور؟
الابنة: عملت ريبورتاج آ ... وان (A, one).
غريب: لا أفهم لغة الفرنجة.
الابنة: حسبتُ أنك ذكي ... خسارة.
غريب (منصرفًا عنها)**:** صدقتِ ... نعم خسارة ... وأنتَ (للابن الذي يتقدم).
الابن: ماذا تريد يا سيد؟
غريب: ماذا فعلتَ عندما رأيت أباك يَنبح؟
الابن: وماذا تُريدني أن أعمل؟

غريب: أنا الذي يسأل.
الابن: ارتديتُ ملابسي وذهبت إلى عملي.
غريب: ألم تُفكِّر في منعه؟
الابن: ولماذا أمنعه؟ كل إنسان حرٌّ في تصرُّفاته.
غريب: ألم يَخطر ببالك أنه يُمكن أن يعضَّ أحدًا؟
الابن: وهل أصبح المُهندسون مختصِّين بعلاج مرضى الكلب؟
غريب: المدينة كما تَعلم خالية من الكلاب.
الابن: سمعتُ هذا أيضًا ... والفضل للأمير ورئيس المدينة ورجال الشرطة.
غريب: ولماذا لم تعاونهم؟
الابن: قلت لك أنا مُهندس ... ثم إني أُعاون نفسي وحسب.
غريب: تعاون نفسك فحسب ... شكرًا ... لا نحبُّ أن نُعطِّلك.
المحقق (يظهر آتيًا بخطوات مَهيبة وهو يرفع صوته)**:** أنت تُعطل الجميع وتُضيِّع وقتهم ... ما هذه المهزلة؟
غريب: أنا لا أعطل أحدًا ... ثم إنها ليست مهزلة.
المحقق: بل مهزلة ... تُريد أن تُعيد التحقيق الذي تم.
غريب: نحن جميعًا نُريد إعادته (يشير للجمهور).
المحقق (يلتفت للجمهور)**:** عبثًا يا سادة ... هذا عبث ... القانون لا يَسمح بهذا.
غريب: قانوننا يَسمح به.
أصوات مُتفرِّقة من الصالة: نعم قانوننا يسمح به.
– نحن نُريد الحقيقة!
– ولا شيء غير الحقيقة!
– لماذا دفعنا ثمن التذاكر إذن؟
– إنها مهزلة.
– بل مأساة.
– مهزلة أو مأساة ... استمروا.
– حرام تضيعوا وقتنا.
المحقق: انتظروا ... انتظروا ... اسمعوا القرار الأخير في القضية ثم احكموا (يبحث في جيوبه).

صوت: نُريد أن نعرف القضية كلها.

المحقق: ولكن القرار صدر.

صوت: قلنا القضية كلها.

المحقق: أغلق ملف القضية ... ختم عليها بالشمع الأحمر.

صوت: جئنا لنَسمع ونرى.

صوت: لم نرَ رواية قصيرة إلى هذا الحد!

صوت: لا تُعطِّلنا يا رجل.

المحقق: لحظة واحدة ... وجدتها ... (يقرأ من ورقة بيده) لما كانت مدينتنا خالية تمامًا من الكلاب ... (ضحك من الصالة) وكانت بفضل أميرنا المحبوب (ضحك) ورئيس مدينتنا المعظم (ضحك) ورجال الشرطة الأشدَّاء (ضحك) ووعي الأهالي ويقظتهم ... (ضحك مُتواصِل وتصفيق) وبفضل الجهد الذي بذلته أنا شخصيًّا (ضحك عالٍ) والعرق الذي تصبَّب أيامًا طويلة على جبهتي (ضحك وتصفيق وضرب بالأرجل على الأرض ... يَتراجع المُحقِّق للخلف وهو يُحاول أن يعرض ورقته الطويلة على الجمهور دون فائدة).

غريب: أرجوكم ... أرجوكم ... شكرًا لكم ... هؤلاء السادة سيَظهرون بعد قليل ... كل واحد منهم سيُشارك في الحكاية ... الزوجة والابنة والابن.

(مُشيرًا إليهم وقد اصطفُّوا وراءه) وهذا الرجل المحترم الذي تشرفت بمعرفته (يَنحني للمحقق) أشهد أنه بذل جهدًا عظيمًا ... وسيظهر أيضًا أشخاص آخرون ... أما معلم النحو الذي مات في الواقع ...

صوت (من الجمهور)**:** كيف يَظهر وهو ميت؟

صوت آخر: يا أخي ضرورة ... ضرورة فنية.

صوت آخر (متأففًا)**:** جمهور آخر زمن ... لماذا يَدخلون المسرح وهم لا يفهمون فيه؟

غريب: أرجوكم ... أرجوكم ... الموضوع خطير ... ولا بدَّ أن تُترك الفرصة للجميع ... كل ما نريده هو الحقيقة ... الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة ... هل هذا المُعلِّم هو الكلب الوحيد في المدينة؟ ... ومِن أين أصابته العدوى وليس في المدينة كلها كلب واحد؟

(يتَّجه ناحية المعلم ... يأخذ بيده ويُحاول أن يهدئه ... يتقدَّمان ناحية السور الحجري بينما يئنُّ المعلم وتسمع منه غصة مبحوحة بين كل كلمة وأخرى.)

غريب: قلت هوِّن عليك ... أنت تُبالغ بغير شك.

المعلم: أعطيتُهم عمري ... عَلَّمتُ الأجيال.

غريب: اهدأ ... اهدأ ... انظر للقمر واهدأ.

المعلم: أنظر للقمر (يبكي ... يسمع نباح الكلاب ... فيزداد بكاؤه).

غريب: تذكر أنها تنبح القمر ... لكنها لن تعضَّه (يَنصرفان ويد غريب على كتفه. وينصرف الجميع).

المشهد الثاني

الإحالة للمعاش

(قطعة أرض صغيرة على شاطئ النهر ... فيها زاوية مُتواضعة، يُغطي مساحتها حصير أشدُّ تواضعًا ... يظهر الغريب وهو يُتمتم على مسبحة في يده ... يُخاطب الجمهور قائلًا ...)

غريب: ما زلت أذكر يوم التقَينا لأول مرة ... كان ذلك بعد دخولي المدينة بأيام قليلة. الفجر يَنفث أنفاسه المنعشة. والشمس لم تزَل مُحتجبة وراء السحب السوداء التي تجري كالقطعان المذعورة. فرغت من صلاتي وسلمت فوجدته خلفي، تلَونا الآيات وتمتَمنا بالدعوات، سلَّمنا وتعارفنا. والغريب يأنس للغريب. قلت له اسمي فقال ...

المعلم: اسم غريب والله.

غريب: يُناسب من يقف على باب الله ... واسم الكريم؟

المعلم: مأمون أمين مأمون.

غريب: اسم على مُسمًّى ... مأمون أمين ... هل تأتي هنا كل يوم؟

المعلم: هذه أول مرة ... ظللتُ أمشي طول النهار والليل على غير هدًى.

غريب: حتى وجدت الأمان والإيمان.

المعلم: اللذَين لم أجدهما في أيِّ مكان.

غريب: ولماذا لم تَذهب إلى بيتك؟

المعلم: بيتي؟

غريب: لا بدَّ أن لك بيتًا وأسرة.

المعلم: زوجة وبنت وولد ... ولكن ما الفائدة؟

غريب: ما الفائدة؟

المعلم: إذا كانوا يُعاملونني كالكلب.

غريب: الكلاب اختفت من مدينتكم ... هذا ما سمعتُه وشجَّعَني على دخولها.

المعلم: وهو ما تقوله الصحف ... وتهتف به مُكبرات الصوت ... ويُكتَب بالأحرف الكبيرة على اللافتات والإعلانات ... هل تعرف أنني تمنَّيت الليلة لو قابلت واحدًا منها.

غريب: واحدًا منها؟

المعلم: من الكلاب ... تمنَّيت لو صادفت كلبًا واحتضنتُه وشكوت له وبكيت معه ... ومت أيضًا معه؟

غريب: من حُسنِ حظك أنك لم تجده!

المعلم: نعم لم أجده ... فالكلاب كلها خرجت من المدينة أو أُخرجت أو قُتلت عن آخرها ... أصبحت الآن ذكرى في خيال العجائز مثلي ... كلمة غامضة في أسماع الشباب والأطفال.

غريب: واختفى السعار ... وأُغلق المستشفى الوحيد الذي كان ضحاياه يزورونه كل يوم بالمئات.

المعلم: ومع أني اشتقتُ أن ألقى واحدًا منها ... هل تُصدِّق أنني كدتُ أتصور نفسي ...

غريب: لا ... لا تكمل.

المعلم: عندما تُحسُّ أنك ضائع وضال في الشوارع والطرقات ... أن أحدًا لا يشعر بك ولا يحتاج إليك ... ألا تَشعُر عندئذ.

غريب: معاذ الله ... قلتُ لا تكمل.

المعلم: واشتدَّ عليَّ الألم حتى كدتُ أجري في الشوارع وأصرخ وأعوي كأنني ...

غريب: أرجوك لا تخرجها من لسانك ... ولماذا لم تذهب إلى بيتك؟

المعلم: هل تتصوَّر أن أجد فيه أحدًا يحس بي.

غريب: أتصور أنك ستَجد فِراشًا تنام عليه.

المعلم: وكيف أنام بعد كل ما حدث؟

غريب: وما الذي حدث؟ لقد نسيت يا أخي.

المعلم: أن تسألني عن عملي ... لا داعي للسؤال عن عمري فأنا كما ترى على المعاش ... خرجت عليه مرتين!

غريب: تخرُج على المعاش مرتين؟

المعلم: مرةً من سنتين ... ومرةً من يوم واحد.

غريب: وعملك؟ مهنتك؟

المعلم: معلم أطفال ... النحو والصرف والخط والدين والإملاء ... أربعين سنة وأنا أمسح السبورة كل صباح وأكتب في أعلاها: قواعد ... أربعين سنة وأنا أهتف بالصغار: القواعد يا أولاد ... كل شيء له قواعد ... كل شيء ... إذا اختلَّت القواعد دب الخلل إلى الإنسان وزُلزلت أركان الأرض وأعمدةُ الكون ... القواعد يا أولاد هي هيكل اللغة واللغة هي هيكل الوجود. مَن لم يعرف الحروف لم يعرف الكلمات. ومن لا يعرف الكلمات لا يَعرف الجُمل ... ومن لا يُكوِّن الجمل المفيدة يَضطرب العالم في عينَيه ويُسقطه العالم من عينيه. القواعد هي الأساس يا أولاد. والذي يُهمل الأساس ينهار السقف على رأسه. القواعد يا أولاد ... القواعد يا أولاد ... حتى بُحَّ صوتي وتحشرَجَ، وصارت تُعاودني الغصة كلما تكلمت (يغصُّ بكلمات ... يسقيه الغريب من زمزمية يخرجها من جيبه).

غريب: أكمل أكمل!

المعلم: أُحلتُ للمعاش من سنتَين ... شعرت بالحزن، ولكن شعوري بالرضا كان أقوى ... لقد نجحت في رعاية أسرة وتربية أبناء ... ولو عرفتَ أن زوجتي مريضة من سنين طويلة بالسكر والكبد والضغط والأعصاب ... لو عرفتَ أن ابني تخرج مهندسًا. وأن ابنتي أصبحت صحفية تَكتب وتَنشر صورها وتحقيقاتها في المجلات.

غريب: من حقِّك أن تشعر بالرضا والاطمئنان.

المعلم: وكل هذا بثلاثين جنيهًا. آخر مرتَّب قبضتُه قبل المعاش. ربما لا تعلم أنني بدأت حياتي بثلاثة جنيهات.

غريب: الرضا رضا النفس.

المعلم: وبقيتُ أعمل وأنبح صوتي ... القواعد يا أولاد ... لا تُهملوا القواعد يا أولاد ... مرَّت بي المِحَن وأنا أُردِّد نفس العبارة وأكتبها بالخط النسخ على أعلى السبورة ... سقطت بلدي في النَّكبات وأنا لا أتوقَّف عن كتابتها وترديدها ... عشتُ كما عاش الناس في ظل الخوف والهزيمة، وسمعتُ عن التعذيب في السجون ... وظللتُ أُردِّد عبارتي وأُعلِّمها

للأطفال: القواعد يا أولاد ... الويل لمن لا يرعاها يا أولاد ... اللغة لها قواعد ... الصحة والمرض ... المَشي والجري ... السماء والأرض ... الشمس والقمر والنجوم.

غريب: جلَّ شأنه ... وكلٌّ في فلك يسبحون.

المعلم: حتى كان الأمس فكشفت عن عيني الغطاء.

غريب: ماذا تقصد يا مأمون؟

المعلم: اكتشفت أنني كنتُ مُسخة الصغار والكبار ... أنني تحفة تراكم عليها التراب في متحف التاريخ.

غريب: وأين كان هذا؟

المعلم: في المدرسة التي التحقتُ بها بعد المعاش ... لم أقل لك إنَّ الأبواب جميعًا سُدَّت في وجهي.

غريب: حتى دخلت من هذا الباب.

المعلم: وليتَني ما دخلت.

غريب: ولماذا لا سمح الله.

المعلم: لأنني أُهنتُ وطُردت منه كأنني ...

غريب: أرجوك ... استغفر الله العظيم (يَنشج المعلم بصوت مُرتفع ويرتج جسده ... يخفت الضوء ويتغيَّر المنظر فنرى فصلًا في مدرسة خاصة. المُعلِّم واقف أمام عدد من التلاميذ من خلفه سبورة كتب عليها بخط نسخ واضح: قواعد)!

المشهد الثالث

مطاردة الكلاب

غريب: وبدأ مأمون الأمين يَحكي عما حدث له بالأمس. لاحظت أن الدموع تترقرَق في عينيه وأن الغصة تُحطم الكلمات التي تخرج مهشمة من فمه. انظروا إليه وهو يقف أمام السبورة وينبح صوته كما هي عادته من أربعين سنة.

المعلم: اليوم درس القواعد يا أولاد. قبل أن أشرح الدرس تذكروا ما قلتُه لكم في الأسبوع الماضي.

تلميذ: أنا يا أستاذ، كل شيء له قواعد؛ الحياة والموت ... الصحة والمرض ... السماء والأرض.

تلميذ آخر: يا لَلملل! كل يوم نَسمع نفس الكلام.

تلميذ ثانٍ: في الدرس يا أستاذ!

المعلم: نحن في الدرس يا ولدي ... كلُّ مَن يُحطم النحو يحطم نفسه وبلده ... يُهمل الأساس فيقع السقف على رأسه ... يتخلَّى عن إنسانيته ويحيا كما كانت تحيا الكلاب.

تلميذ: هاي ... هاي ... أريد أرى أرى كلبًا.

تلميذ آخر: أنا رأيت الكلاب من كل الأنواع ... عندما سافرت مع «دادي» شاهدت الولف، والبودل، والكانيش.

تلميذ ثانٍ: إلا البلدي.

تلميذ ثالث: افتح عينَيك ... إنه أمامك!

المعلم: تجاهلت ما قاله الولد العفريت. ارتجَّ عليَّ ولكني سامحتُه ... إنهم أولادي ... وأنا أعلمهم القواعد ... ورفعت صوتي قائلًا: ليس في مدينتنا كلاب يا أبنائي ... زميلكم رآها في مدن أخرى ... أما مدينتنا فقد تخلَّصَت منها ... مدينتنا بحمد الله خالية من الكلاب ... لندخل الآن في الدرس ... الجملة المفيدة نوعان؛ اسمية وهي التي تبدأ باسم. وفعلية وهي التي تبدأ بفعل ... هل يُمكنك أن تُعطيني مثلًا ... أنت يا بني.

تلميذ: الكلب يشرح الدرس.

التلاميذ: هاي ... هاي ... يشرح الدرس ... يشرح الدرس.

المعلم: تجاهلت ما قاله ... رأيت اللقمة المسمومة وخشيت الوقوع في الفخ ... أسرعت أقول: هذه جملة اسمية ... برافو ... من يُعطيني مثلًا للجملة الفعلية؟ نهض تلميذ آخر لا يقلُّ وقاحة وقال ...

التلميذ: يعض الكلب سيده.

المعلم: وصاح تلميذ ثالث تتدلى من معصمه سلسلة فضية ومن رقبته سلسلة ذهبية ...

التلميذ: يعضُّ سادته.

المعلم: صفَّق التلاميذ لقوله ... هاج الفصل وماج بالضَّحك والتصفيق ... قلت في هدوء: يعضُّ الكلب الحصان ... صاح تلميذ مُدلَّل ونادى على زميله السابق ...

التلميذ: أنت حصان يا أشرف.

المعلم: عاود التلاميذ الضحك بصوت عالٍ. حاولت أن أُسكتهم فقلت: سأحكي لكم حكاية يا أولادي ... سنُوضح الجملة الاسمية والفعلية بحكاية ... هتفوا جميعًا ...

التلاميذ: اسمعوا الحكاية.

تلميذ: نُريد حكاية الكلب والحصان.

تلميذ: ومَن الذي سيَحكيها؟

تلميذ: الكلب الذي عضَّه طبعًا.

تلميذ: الكلب أدرى بالكلاب.

المعلم: كتمتُ غيظي وسكتُّ. أدركت لحظتها أن أعمدة حياتي تنهار على رأسي وتثير عاصفة من الغبار. تحامَلتُ على نفسي وتلفَّت حولي كمن يقف وسط الأنقاض. وبحثت عن صوتي فلم أجد إلا الغصَّة تبتلع الغصة. لكنَّني سحبته بكل قوتي وقلت: استمعوا يا أولادي. خالد فارس عربي. كان دائمًا يحب ركوب الخيل ويَنطلق بها في الصحراء. وكان له حصان يُحبه كثيرًا ويخرج به للنزهة وملاقاة الأعداء. ذات يوم ركب خالد فرسه وذهب

يتحدَّى الأعداء. ولكنه نسيَ قواعد الفروسية التي تعلَّمها في صباه وشبابه فوقع في أسرهم وقيَّدوه بالسلاسل والحبال. ظلَّ الحصان واقفًا بجانبه ينظر إليه بعينين تملؤهما الدموع ... قاطعني أحد التلاميذ وصاح ...

التلميذ: والكلاب يا أستاذ؟

المعلم: الكلاب؟ نعم نعم ... أحاطت به الكلاب من كل مكان. لم يكن هناك من يتخلَّص منها كما تخلصت مدينتنا من شرها. لذلك هاجمته الكلاب وراحت تعضه وتنهش لحمه ولحم فرسه.

تلميذ: وماذا فعل الفارس يا أستاذ؟

المعلم: وماذا يفعل يا ولدي؟ ماذا يستطيع المقيَّد بالسلاسل والحبال؟ تألَّم وما زال يتألم .

تلميذ: والحصان العربي يا أستاذ؟

المعلم: ما تزال الكلاب تَنهش لحمه، وما زال يَنتظر.

تلميذ: ماذا ينتظر؟

المعلم: يَنتظر فارسًا يعرف قواعد الفروسية.

تلميذ: والكلاب يا أستاذ؟

المعلم: لا تزال كعادتها تَنبح وتعض ... وتعض وتنبح.

تلميذ: هناك في التاريخ القديم.

تلميذ آخر: وفي البلاد الأخرى.

تلميذ ثالث: ولماذا البلاد الأخرى؟

المعلم: أسرعت أقول: لأنَّ مدينَتنا ليس بها كلاب ... مدينتنا ليس بها كلاب ... فقاطعني التلميذ المدلل ...

التلميذ: بها كلب واحد يا أستاذ.

المعلم: وأخذ التلاميذ يهتفون: كلب واحد يا أستاذ ... هاي هاي ... كلب واحد يا أستاذ ... هاي هاي ... اضطربتُ واحتُبس صوتي. لم أعرف كيف أرد عليهم أو كيف أعيد النظام ... لحَّنوها ووقَّعوها وأخذوا يُغنُّون ... وفوجئت بالناظرة تدفع الباب وتدخل منه صائحة ... ما هذا؟ هل جُننتم؟ ماذا تفعل يا أستاذ؟

(المعلم يحاول أن يخرج صوتًا فلا يستطيع.)

الناظرة: ماذا تقولون؟ ما الذي قاله الأستاذ؟

تلميذ: شرح لنا درس القواعد.

تلميذ آخر: وكلمنا عن الكلاب التي تعضُّ الفارس والحصان العربي.

الناظرة: والنشيد الذي تغنونه؟

تلميذ: تعلَّمناه من الأستاذ.

الناظرة: صحيح يا أستاذ؟ تُكلمهم عن الكلاب ومدينتنا خالية من الكلاب؟ تُذكِّرهم بماضٍ ذهب ولن يعود؟ تُريد أن يُصبحوا كلابًا ... أن تدخل الكلاب من جديد إلى المدينة والمدرسة؟ لماذا لا ترد؟ اخرجوا الآن يا أولاد ... اخرجوا ... أريد أن أكون وحدي مع الأستاذ.

التلاميذ (وهم ينصرفون): كلب واحد يا أستاذ! هاي هاي! كلب واحد يا أستاذ! هاي هاي!

غريب: وانصرف الأشقياء وهم يغمزون ويلمزون ... ترى مَن الذي علَّمهم كيف تنبح الكلاب وكيف تعض؟ لقد اقترب بعضهم منه وأخذ يعوي: هاو! هاو! ومال أحدهم على قدمه وقلَّد الكلب المسعور ... ولولا غضب الناظرة وصراخها فيهم لانقلب الفصل إلى حظيرة كلاب تنبح وتعض، وتعض وتنبح ... تقدمت الناظرة غاضبة إلى صديقي مأمون وقالت وهي تدمدم ...

الناظرة: أنت المسئول عما حدث. هذه أول مرة في المدرسة تُمثَّل فيها هذه المهزلة ... لقد أحسست من أول يوم رأيتك أنك لا تصلح. هل نسيتَ أنك في مدرسة محترمة، تلاميذها أبناء ناس مُحترمين؟ نسيتَ أن مجلس الآباء يضمُّ وزراء ووكلاء وزارات، ورؤساء وأعضاء مجالس إدارة، وتجارًا أغنياء ومُستوردين ومُصدِّرين يَلعبون بالعملات الصعبة ... نسيتَ ورُحتَ تُقدِّم ألعاب القرود أمام تلاميذ تربوا في الفلل والقصور؟ وليتَكَ اكتفيت بألعاب القرود ... لقد دخلت في جلد كلب وأخذت تنبح وتقفز أمامهم ... ولولا يقظتي وحَزمي لغرزت أنيابك فيهم ... تكلم ... دافع عن نفسك ... لماذا تَكتفي بالأنين واجترار لعابك؟ لماذا يغص حلقك بالكلام؟ ألا يمكنك أن تنبح أو تعوي؟ لا. لن تتكرر المهزلة ... ولولا دموعك لسلَّمتك لرجال الشرطة ... تعالَ ورائي في الحال ... تعالَ خذ حسابك ولا تريني وجهك الآن.

غريب: لا أدري هل وصفته بالكلب أم لا. ولكن كلامها كان واضحًا بما يكفي. ومشى صديقي وراءها حتى وصل إلى مكتبها. حدَّقت فيه من أعلى إلى أسفل وتهكمت نظراتها على بذلته المترهلة وربطة عنقه التي تبلغ حجم الفيل وعينيه الجاحظتين وراء زجاج النظارة السميك ... ولما يَئست من أن يُخرج من فمه حرفًا مدَّت يدها بمظروف أصفر صغير.

كانت فيه ورقة الاستغناء عن خدماته مع مكافأة التدريس ... فتح صديقي المظروف ووجد ثلاثين جينهًا. تراكم الخجل مع اليأس مع المرارة في نفسه فجلس إلى جوار بيت قديم وأخذ يبكي. تمنَّى كما سمعتم لو كان كلبًا ليموت في ظلِّ جدار أو بجانب حائط مهجور. ثم نهض بعد أن أوغل الليل وأخذ يجوب الشوارع حتى شعر بأنفاس الفجر على وجهه فاتجه إلى شاطئ النهر الوحيد في المدينة ... وهنالك لمح شبحًا يصلي فخلع حذاءه ووقف وراءه ... ثم تعارَفنا كما رأيتم وتكلَّمنا في الأحوال والأعمال، حتى تخيَّلت أنه استعاد الأمان والاطمئنان. لكن الفأر لعب في عبى، والشيطان وسوس لي وسواس الشر. ماذا سيفعل الآن؟ هل يتَّجه إلى بيته وزوجته وعياله؟ أم يستأنف جولته في غابة المدينة؟ وتبعته من بعيد حتى خرج من أبواب المدينة ... إلى أين ذهب؟ لن تصدقوا حتى تروه وتسمعوه بأنفسكم.

(يخفت الضوء رويدًا رويدًا حتى ينطفئ. ويعود بعد أن يبزغ القمر وينشر غلالته الشاحبة على المقبرة الكبيرة.)

المشهد الرابع

قبر الأم

(منظر مقبرة كبيرة في ضوء القمر. المعلم مُنحَنٍ بجانب أحد القبور. يتسلَّل غريب من بعيد كالشبح ويقف قريبًا منه. المعلم يواصل حديثه المتقطِّع الذي يُشبه الهمس والمناجاة.)

المعلم: لماذا يا أمي؟ لماذا؟ لماذا ولدتِني بلا ظُفرٍ ولا ناب؟ لماذا لم تعلميني أن أناطح الثيران، وأبقر بطون الذئاب، وأعض الكلاب قبل أن تعضَّني؟ لماذا لم ترميني في غابة أو صحراء، في عرين الأسود أو عش النسور أو حجر العقارب والأفاعي والحيات؟ الحمامة لا بدَّ أن تنقلب صقرًا، وإلا قتَلتْها الصقور. الحياة قاتل أو مقتول، آكل أو مأكول، غالب يمتطي صهوة الجواد أو مغلوب يُسحق تحت سنابكه. أشبعت غزالك من لبن الحنان حتى شرَد في المراعي ونسي النمور والفهود والسباع والضباع المتربصة خلف التلال والروابي والأحراش. ماذا تفعل حمامتك في فكِّ الثعبان؟ ماذا يَملك غزالك مع ناب الأسد الفتاك وظلف النمر الغادر والضبع الخوان؟ هل تسرح الحمامة في زرقة الأثير؟ هل تحلم الغزالة بالخضرة والربيع؟ إنها تتكسر يا أمي وتتفتَّت. لماذا لم تُرضعيها لبن الشراسة والوحشية؟ لماذا لم تُدفئي صدرها العريان بالدروع والأسلاك والأشواك؟ لماذا لم تُعطيها الحربة والبلطة والسكين؟ ولماذا لم تضَعي في يدي السوط والصولجان حتى لا يَطعنَني لصوص المقابر المُلثَّمون؟ أهو خطؤك أم خطأ أبي؟ أيكون العيب في البذرة أم في الرحم؟ تائه وسط وحوش الغاب أناديك: لم سقيتني من نبعك الطهور؟ لِم لَم تخلطيه بالسم والعفن

وحمم الجحيم؟ تطالع عيني النجوم بينما يغرق جسدي في المستنقع. تنطلق روحي في جنة الجمال بينما يغرز القبح أسنانه في لحمي واسمي وسيرتي وعرقي. أمدُّ يدي بزهور الأمل فتمتد النصال لتَطعن الماضي وتُكفن الحاضر وتدفن المستقبل. حتى الصغار يا حبيبتي! حتى الصغار! أهدهد مهدهم فيُسوون لحدي. يقولون السياسة والاقتصاد. يتكلَّمون عن الهزائم والنكبات. يلومون النحس والأقدار. لكن مَن يتذكر جثمان الضمير المدفون في صندوق قمامة الصدور؟ من يتذكر طير النفس الأخضر الملطَّخ بالوحل وهو يتخبَّط في دمائه في زنزانة الضلوع؟ ماتَ الضمير، شوه طير النفس الحبيب. أين يا أمي، أين مياه النبع الأبدي تُصفيه! أي بحار الأرض سيتَّسع لهذا الجبل من الأكدار وهذا السيل من الأقذار؟ (ينظر إلى السماء، يُلاحظ القمر وهو يصارع السحب السوداء) مَعذِرة يا أمي. لا أدري إن كنتِ تسمعينني أم إني أعوي وأئنُّ على قبر آخر. من يَدري إن كان هذا هو قبرك أو قبر قتيل أو طفل أو سفَّاح أو فلَّاح أو مجنون أو لصٍّ أو سكِّير مسكين. لا أدري، لا أدري. أين أنت يا غريب لتقف بجانبي! أين أنت يا غريب؟

(يتقدَّم الغريب وينحني عليه)

غريب: لقد عاد من غربته.
المعلم: أنت؟
غريب: نعم أنا. هل كنتَ تظنُّ أنني سأتركك وحدك؟
المعلم: كيف عرفت أنني هنا؟ هل كنتَ تَتبعني؟
غريب: وكان يَتبعني شبح آخر (يظهر شبح من بعيد).
المعلم: ماذا تعني؟
غريب (مُشيرًا إلى الخلف)**:** لا أعني شيئًا. تائه مثلك أو غريب وعابر سبيل مثلي.
المعلم: أو لصٌّ أو مُخبر ... لم أعُد أخاف شيئًا ... ليفعلوا ما يشاءون.
غريب: اهدأ يا مأمون.
المعلم: ليقتلوني أو يُقيِّدوني بالسلاسل أو يضعوا الكمامة على فمي ويَسحبوني في شوارع المدينة.
غريب: قلت لعلَّه تائه مثلك أو عابر سبيل.
المعلم (في حزن)**:** كنت تتبَعُني؟
غريب: النفس أمارة بالسوء.

المعلم: خفت أن تُغرقها في النهر أو في الخمر.

المعلم: ولهذا سِرتَ ورائي.

غريب: حتى تورَّمَت قدماي وتقطَّعت أنفاسي ... سرتُ وراءك من حارة إلى شارع، ومن شارع إلى ميدان. غبتُ قليلًا في أحد البيوت فقلت هو مسكنه وسيَشفيه النوم من كل الأوجاع. وتريَّثت قليلًا لأطمئنَّ فإذا بك تَخرُج مسرعًا وتجري بلا هدف. ظللت أُلاحقك حتى خرجت إلى أطراف المدينة. ورأيتك تَندفِع نحو المدافن القديمة فأسرعت وراءك. هل تدري ماذا فكرت في هذه اللحظة؟

المعلم: إنَّني سأَدفن نفسي بنفسي؟

غريب: لم تُخطئ، ولهذا أسرعت لعلك تحتاج إليَّ!

المعلم: أصبتَ يا صاحبي. جئت أبحث عن أحد يقف بجانبي. تذكَّرت الإنسان الوحيد الذي لا يُمكن أن يَخذلني.

غريب: ألم نُصبح أصدقاء؟

المعلم: أجل أجل، لكن الفرخ التائه يَبحث عن عشِّه.

غريب: وهل وجدته.

المعلم: كل الأعشاش سواء. على كلٍّ منها شاهد مكسور أو مُتآكل. رحت أجري بينها وأهتف: أمي! أمي! وكأني أنتظر صوتًا من وراء القبر. انحنَيت عليها جميعًا وتفرستُ في الأسماء المكتوبة على قِطَع الرخام والمحفورة في الإسمنت المُتداعي. لا. لم يكن بينها اسم أمي. حاولت أن أتذكَّر موقع قبرها. حين كان أبي يأخُذني من يدي لزيارتها كنا نَنحرِف إلى اليمين من البوابة الرئيسية وكوخ الحارس، ثم نَنعطِف بجوار قناة جافَّة، ونجتاز ضريح أحد الأولياء. بحثت عن القناة والضريح فلم أجدهما. حتى كوخ الحارس اختفى كأنهم أحالوه مثلي للمعاش. غربت الشمس وأنا أتخبَّط بين القبور ... أُنادي فيُجيبني الصدى ونعيق البوم. بدأ الظلام يَزحف وأنا أتخبَّط في خوفي وارتعاش قدمي ووجيب قلبي! واشتد الظلام فجلستُ أمام هذا القبر وأنا أُخفي نفسي عن نفسي. هل تُصدق أنني خشيت أن يكون قبرها؟ وبماذا أُعلِّل نسياني وخجلي وجُحودي؟

غريب: وفاء يليق بمَن سمَّتك «أمين».

المعلم (صائحًا): بل بجَرو يَبحث عن أمه.

غريب: معاذ الله ... ألا تَرفع رأسك للسماء؟!

المعلم: أعرف ما ستقول. أرفع رأسي لأرى القمر ... لأتطلَّع في وجهِه الضاحك من نباح الكلاب ... لقد جئت لأبحث عنها ... لأدفن وجهي في صدرها.

غريب: ولكنَّك لم تجدها ولم تبكِ.

المعلم: كنتُ أناجي نفسي وأناجيها.

غريب: أم كنت تلومها؟

المعلم: لأنَّها لم تَلِد أسدًا أو ذئبًا بدلًا من ...

غريب: أستغفر الله ... نسيت أنك مُعلِّم؟

المعلم: نسيتُ كل شيء!

غريب: حتى القواعد؟

المعلم: انهارَت فوقي (يغصُّ بكلماته).

غريب: وتركتك عاجزًا عن تكوين جملة مُفيدة؟

المعلم (صارخًا): تركتني وحيدًا. هل جربت أن تكون وحيدًا في فكِّ تنِّين يبتلع الملايين؟ وحيدًا في بيتك، مع زوجتك وابنك وابنتك؟ وحيدًا لا يأكُل أحد معك، ولا يتحدث أحد إليك ولا يُبادلك ابتسامة ولا دمعة ولا سيجارة؟ هل جرَّبت أن تعيش هكذا أسابيع وشهورًا وسنين؟ وحدك وحدك وحدك.

غريب: الإنسان لا يكون وحده أبدًا.

المعلم: هل قلت الإنسان؟ (صمت!)

غريب: لماذا سكت؟

المعلم: لم أسمع هذه الكلمة من سنوات طويلة ... الإنسان ... يا لهذا الرنين العجيب ... قلها مرةً أخرى!

غريب: أكُلُّ هذا لأنك مررت على بيتك؟

المعلم: ولم أَمكُث أكثر من دقائق.

غريب: ماذا حدث؟!

المعلم: ما يَحدث كل يوم وكل أسبوع وكل شهر وكل عام. سلَّمت فلم يردَّ أحد. نادَيت فلم يفتح باب. وضعت الجنيهات على مائدة الصالة وهتفت: نقود ... نقود. هذه هي مكافأة المعاش. تسلَّلَت زوجتي من حجرة نومها وصاحت: لا داعي للإزعاج. الأولاد نائمون. هتفت: نائمون! نائمون! ألا يستيقظون أبدًا؟ أليس من حق الأب أن يرى أولاده؟ كشَّرَت عن أسنانها الصفراء وقالت: الأب؟ وما هذا؟ قلت: ثلاثون جنيهًا. مكافأةَ الإحالة

للمعاش ... زغردَت هاتفة: تعالوا يا أولاد! انظروا ما جاء به الغراب! ثرتُ غاضبًا ولكنها اندفعت تطرق الأبواب بعنف. صحَتِ البنت من نومها وهي تقول: أليس في الدنيا راحة؟ ماذا تُريدين يا ماما؟ قالت: أبوكَ أحضَرَ لك ثمن الشقة والذهب والأثاث وفستان الزفاف ... تحرَّكت البنت إلى المائدة وقلَّبت الجنيهات بين يديها. صفَّرت بفمها وضحكَت ثم عادت لتنام. خرج أخوها بصدر عارٍ وهو يَصيح: ألا تكفَّان عن الشجار؟ هتفت أمه: أبوك أحضر معه خلوَّ الرِّجل والمهر والشبكة وتكاليف المكتب الجديد. اتَّجَه الولد إلى المائدة ونظر إلى الجنيهات وأخرج صوتًا مِن أنفه ثم رجع لنومه. ومددتُ يدي في جيبي وأخرجتُها وقلتُ لزوجتي قبل أن أقصف الباب ورائي: هذه هي الحبوب والدواء!

غريب: وتذكَّرتَ أمك فجئت تبحث عنها وتضع الذنب على رأسها؟

المعلم: أمي ... أمي ... (يبكي!)

غريب: لا تنسَ يا ولدي أنك على المعاش.

المعلم: إنني وحيد.

غريب: لستَ وحيدًا يا ولدي.

المعلم: كلبٌ ضالٌّ في مدينة مسعورة.

غريب: بل قمر يسطع في سمائها.

المعلم: ستَنبحُني الكلاب.

غريب (يأخذه من يده)**:** لكنها لن تعضك!

(يَنهض في حنان. يضع يده على كتفه ويَنصرفان. يستدير الغريب ويقول ...)

غريب: لم نكَد نخطو عدة خطوات حتى رأيت الشبح المتلصِّص يَهرب من بوابة المقبرة. مشيتُ مع صاحبي صامتَين حتى وصلنا إلى بيته. قلت له وهو يترنَّح من التعب: تذكر موعدنا. تذكَّر أن الكلاب تَنبح القمر ... قال وهو يبتسم: أتظن أنها لن تعضَّه؟ وفجأة صرخ كمن لدغته العقرب أو غارت في قلبه السكين: عضَّتني الملعونة ... حاذر يا غريب ... حاذر من الكلاب ... وأسرع داخلًا من الباب ... وتركني في الليل والظلام (يسمع نباح الكلاب).

المشهد الخامس

القبض على المسعور

(صالة في مسكن مأمون أمين مأمون. تظهر مائدة عليها أطباق وأكواب فارغة وبقايا خبز بعد العشاء. إلى اليسار كراسي وكنبة من طقم قديم يَجلس عليها الزوجة والابن والابنة ويتحدَّثون. يدلف الغريب من بابٍ خلفي ويقدم المشهد.)

غريب: تخلَّفَ عن موعده في الفجر على شطِّ النهر. لم أرَه إلا عصر اليوم التالي وهو يجري ويلهث ويخرج من أتون صدره الحمم والنيران. جرى الناس وجريت وراءه ... ما الذي دفعه إلى هذا؟ ما الذي أشعل فيه البركان؟ لم أكن بالطبع معه عندما دخل مسكنه. لكنَّني فهمت بعد ذلك من إشاراته وبحَّاته واختلاجاته أن الأمور سارَت على هذا الترتيب. تعالَ يا صديقي. تعالَ يا مأمون. اعرض ما حدَث علينا بالتقريب. أدِر العجلة للماضي ... هيا يا مأمون.

(مأمون يدخل الصالة وهو يَعرج ويتحسَّس بطن رجليه وقدميه. يُحاول أن يُلقي تحية المساء فلا تخرج إلا غصة تُسمَع منها سين أو صاد!)

غريب: لا بد أنه ألقى تحية المساء. ولا بدَّ أن الألم تمكن منه وحبس لسانه. جلس على المائدة. بدأ يئنُّ وهم لا يَلتفتون. بل ربما لم يشعروا به ولم يُكلِّفوا أنفسهم أن ينظروا إليه.

الابن: لا لا ... لا تَحمِلي همًّا من هذه الناحية. كل شيء تمام التمام. العقد في جيبي والتوقيع الليلة.

الابنة: ولماذا السرعة؟

الابن: ولماذا البطء أو التأجيل؟ الليلة نسهر في «الكهف السحري» ويتمُّ التوقيع.

الابنة: هل تَثِق فيه؟

الابن: وهل يشكُّ أحد في منجم ذهب؟

الزوجة: أنا لا أطمع في ذهب. كل ما أُريده ...

الابن: أعرف ... أعرف. عشرة آلاف جنيه.

الزوجة: خلوٌّ رِجل فقط. وليتَه يرضى!

الابنة: وأحلق عندك يا ماما ... يا أعظم وأجمل كوافير!

(تقوم الابنة وتُقبلها ... تتَّجه إلى أخيها وتُقبِّله وهي تقول): وأنا؟ ألم تُفكِّر فيَّ؟

الابن: دماغك ناشفة!

الابنة: أترضى أن أبيع حريتي؟

الابن: منجم ذهب ... ستَغرفين منه ونَغرف معك.

الابنة: وحريتي؟

الابن: ادخُلي المنجم ثم فكِّري فيها.

الابنة: أفكر فيها مع شيخ في الستين؟

الابن: قولي لها يا ماما.

الزوجة: كِبر وفقر لأبيها.

(الابن يَلتفت إلى أبيه ويضحك.)

(الابنة تَلتفت إليه وتضحك بصوت عالٍ.)

الزوجة (تَلتفِت إليه وتصيح)**:** عندك الشوربة ... ليس هنا غيرها.

غريب: كان يُتابعهم طول الوقت بعينَيه. تَجحظان قليلًا ويمدُّ رقبته ويُحاول أن يُخرج كلمة. يَغلبه الألم فيتأوَّه، تقف الغصة في حلقه فيُصفِّر أو يتنحنح أو يدمدم. يُواصِلون الضحك ثم يستمرُّون ...

الابن: ضعي عقلك في راسك.

الابنة: اعرف أنت خلاصك.
الابن: شقَّة على النيل بمائة ألف جنيه.
الابنة: قررت إحالة الفتنة للمعاش؟
الزوجة: يكفينا الهم الثقيل.
غريب: سخسخوا على نفسهم من الضحك. أشاروا إليه فرفع عينيه عن طبق الشوربة. لم يرَوا الدمعة تلمع وتسقط فيها.
الزوجة: البوتيك؟ ... البوتيك ... ربع قرن وأنا أنتظر.
الابنة: ونسيت الكوافير؟
الابن: غالية والطلب رخيص ... البوتيك والكوافير ... الشيك سيكون عندك الليلة!
الابنة: وأنا؟ نسيت الكاميرا؟
الابن: ماركة زايس وحياة عينيك.
الابنة: لا تُساوي صورتي على الغلاف.
الابن: والشيك سيكون في جيبك بعد يومَين.
الابنة: تحيا الشُّهرة ... يحيا المجد!
الابن: منجم ذهب ... منجم ذهب!
الزوجة: زحفنا طول العمر على البطون.
الابن: ستكون المرسيدس تحت أمرك.
الزوجة: عِشنا في الكهف سنين.
الابن: الفيلا تتَّسع للجميع.
الزوجة: نحن في حلم أو علم؟
الابن: هذه مِهنتنا يا ماما. نُحوِّل الحلم إلى علم.
الزوجة: وأعيش وأسكن في الفيلا.
الابن: سنعيش فيها معًا.
الابنة (مُشيرة لأبيها): والغزال القديم؟
الابن: والنحو والصرف؟
الزوجة: يَبلعه على راحته.
غريب: وقفت في حلقه اللقمة والشوربة. أخذ يَسعل ويسعل ويُحاول أن يخرج صوتًا أو كلمة ... بدأ الصفير المتقطِّع يَندفع من صدره وحنجرته وفمه. تلوَّى وانتفض وأخذ

يحكُّ قدمه ورجله. ثم كشَّر عن أسنانه وراح يَعوي ... حدق في وجوههم واحدًا بعد الآخر ثم أدار ظهره وصفق الباب من ورائه.

الزوجة: كلب ابن كلب.

غريب: وذهبت الزوجة إلى حُجرتها وأغلقت عليها الباب بالمفتاح. وتمطَّى الابن ودخل الحمام ليجهز نفسه لموعد الليلة.

الابن: غريب يا عم مأمون ... ولا غريب إلا الشيطان!

غريب: وانطلقت الابنة تجري إلى حُجرتها المشتركة مع أمها فوجدتها مُغلَقة بالمفتاح.

الابنة: افتحي يا ماما ... بسُرعة ... بسرعة.

صوت الأم: لا أريد أن أرى أحدًا.

الابنة: وأنا أريد الكاميرا ... فرصة ذهبية يا ماما ... فرصة ذهبية ... وحياتك لا تضيعيها عليَّ!

(تَنصرِف الابنة وتخلو الصالة. يَستأنف عابر السبيل غريب حديثه ويتقدم إلى الوسط.)

غريب: كان صديقي قد اندفع كالسيل إلى الخارج. تراكم الزَّبد على فمِه وبدأت الحمم تَخرج منه. هاجت في صدره شياطين الجحيم فراحت تَقذِف اللهب في كل اتجاه.

صوت المعلم: كلاب وكلاب وكلاب ... هاو ... هاو ... هاو ... تَزحفون على البطون وتملئون البطون وتعيشون للبطون ... تقفون طوابير على صناديق القمامة ... هاو ... حتى أصبحتم قمامة ... هاو ... هاو ... ابتعدوا عن طريقي ... ابتعدوا ... إني أنبح وأعض ... أنبح وأعض ... عرفت نفسي فلماذا تأخَّرتم؟ هاجمني السعار فلماذا ترَكَكم؟ ... السعار في الهواء ... السعار في الأشجار ... السعار في الأحجار ... هاو ... هاو ... هاو ... في عيونكم ... دمائكم ... كروشكم ... جيوبكم ... كلامكم ... المال المال ... الشهرة الشهرة ... السلطة السلطة ... وتمدُّون ألسنتكم وتلعقون ... وتمدُّون مخالبكم وتَخمشون ... وتمدون أنيابكم وتعضون ... لماذا لا تَعترفون بالحقيقة وتزحفون ... هاو ... هاو ... تشجَّعوا وجرِّبوا ... ها أنا أزحف على أربع ... أعضُّ الأرض ... أعض الحجر ... أعض الطين ... مَن منكم أحبابي؟ الكل ولا أحد بعينه ... مَن منكم أعدائي؟ الكل ولا أحد بعينه ... السعار يَزحف عليكم. السيل سيجرفكم ... لن ينجو أحد منكم ... يا نوح ... أين أنت يا نوح ... أين أنت يا نوح؟!

غريب: كان الجري قد أنهَكَه وأهلك الجموع التي جرت وراءه. لم يجسر أحد على الاقتراب منه أو الإمساك به. والجنود الذين رأوه وسمعوه ذهلوا حتى عن إطلاق الصياح أو الرصاص أو الصفير ... كان منظره مُرعبًا عندما التفتُّ من صلاتي في الزاوية التي نلتقي فيها فوجدته يسقط على الأرض مغشيًّا عليه. وبدأ الناس يتحلَّقون حوله وهم يَلهثون ويُحوقِلُون ... أما الأطفال فوجدوا مُعجزةً لم يرَوها فأخذوا يَتصايحون ويتضاحكون: كلب ... كلب ... لم نرَه إلا في كتب الوزارة! ... يَنهرهم العجائز: هذا مريض يا أولاد ... ابتعدوا عنه وادعوا له بالشفاء ... يَتزاحم الصغار عليه: مَن أعداه وليس في المدينة كلاب؟ يُفرقهم الكبار بقسوة ويُزمجرون: ابتعدوا عنه ... اتركوه للشرطة أو لحراس الأمير ... وبرَز من الزحام وجه خُيِّل إليَّ أنه يَعرفني وأنني أعرفه ... حدَّق في وجهي وحدقت في وجهه. تذكرت شبح المقبرة الذي كان يتبعني كظلي ...

المخبر: أنت؟

غريب: التقَينا قبل الآن.

المخبر: ولكنَّنا لم نتعارَف (يَفتح بطاقته ويعرضها عليه خفية).

غريب: ما أنا إلا عابر سبيل.

المخبر: يُعجبني اعترافك.

غريب: ماذا تعني؟

المخبر: أنت صاحبه.

غريب: وهو حبيبي.

المخبر: هيا معي.

غريب: وأخرج من جيبه قيدًا كبَّل به يدي ... وشقَّ طريقه بين العيون المتطلِّعة والأجسام المتكدِّسة وصيحات الأطفال وولولة النساء، وفي صمتٍ انحنى رجال الشرطة على صديقي فوضَعُوه في عربة البوكس. وفي لحظة كنت في داخلها أشد على يد صاحبي وأضع صدره على صدري. وازداد الضجيج والصياح والضحك حتى خنَقَه صوت صارخ انطلق من مكبرات الصوت المجهولة: «أنا الأمير ... أبدتُ الكلاب وقضَيتُ على السعار. من أين جاء هذا الكلب الحقير؟ مَن الذي أعداه؟ مَن سمح له بالخروج دون إذن أو تصريح؟ أنا أبني الإنسان الجديد وأغرس فيه قيَم الشجاعة والضمير. من الذي سمح بأن يتسلَّل إلينا هذا المسعور؟ الأمر خطير ... الأمر خطير ... الأمر خطير.»

المشهد السادس

التحقيق

(المكان الخالي الذي رأيناه في المشهد الأول. لكنَّه الآن قاعة في مستشفى، جدرانها بيضاء ناصعة، وفي الجانب الأيسَر منها مكتب صغير أمامه من ناحية كرسي يجلس عليه المحقِّق، ومن الناحية الأخرى كرسي آخر يجلس عليه من يجرى التحقيق معه. يجلس بجوارهما الكاتب الذي يُدوِّن المحضر، ويقوم بدوره المخبر الذي سبق أن عرفناه. في عمق المسرح يبدو سرير سفري صغير، يَرقد عليه المعلِّم المُصاب وبجانبه الغريب. يساعده الغريب على ابتلاع لقمة ثم ينهض ويَمشي خطوات نحو مقدمة المسرح.)

غريب: إنه لا يُفيق من غيبوبته. حاولت الآن أن أدسَّ لقمة في فمه، راح يبلعها وهو يزوم. أما الماء فقد منعوه عنه وحذروني منه بكل شدة. ما مصيره يا ترى؟ هل يُفيق من هذه النوبة ويَرجع مُعلِّم النحو كما كان؟ أصر المُحقِّق أن يبدأ به. شرحت له حالته التي عجز أمامها الأطباء. لكنه صمَّم على رأيه. بللت وجهه بالماء وأسندته على كتفي حتى جلس على الكرسي. وسأله المحقِّق بعض الأسئلة قبل أن ييئس منه ...

صوت المحقق: اسمك؟

المعلم: هاو هاو.

صوت المُحقِّق: عمرك؟

المعلم: هاو هاو.

صوت المحقق: مهنتك؟

المعلم (في ألم شديد كأنَّها آهة طويلة)**:** هاااو ... هاااو ... هاااو.

صوت المحقِّق: أين عضَّك الكلب؟

المعلم: هاو ... هاو.

صوت المحقق: في المدينة أو خارج المدينة؟

المعلم: هاو ... هاو.

صوت المحقق: هل لديك أقوال أخرى؟

المعلم: هاو هاو هاو هاو.

المحقق (للكاتب)**:** ولما كان المُصاب عاجزًا عن التوقيع على أقواله، فقد اكتفَينا بذلك، وأمرنا باستدعاء زوجته وابنه وابنته لسؤالهم عن معلومات عن الحادثة.

غريب: وساعدته مرةً أخرى حتى رجع إلى سريره. وجلست بجانبه أنتظر نهاية التحقيق كما أنتظر مصيري. نسيتُ أن أقول لكم إنهم فكوا القيد الذي وضعوه في يدي حتى يبت في أمري، لأنَّ المُستشفى يحوطها الحرس من كل ناحية ولا تخلو منهم قاعة ولا طرقة ولا دورة مياه ونادى المحقِّق على الزوجة فأقبلت كالأرنبة المذعورة التي دخلت في جلد نمرة ...

المحقق: اسمك؟

الزوجة: مُفيدة أحمد منصور.

المحقق: عمرك؟

الزوجة: ثلاث وخمسون سنة.

المحقق: ما معلوماتك عن حادثة زوجِك مأمون أمين مأمون؟

الزوجة: كنتُ يوم الجمعة أجلس في أمان الله مع الأولاد. ودخل مأمون مُتأخِّرًا وجلس أمام المائدة في الصالة وأخذ يَتناول عشاءه من طبق شوربة عدس دافئة؛ لأنَّنا كنا قد انتهينا من عشائنا قبل قليل. وأخذنا نُتابع حديثنا عن الدنيا والأحوال عندما فوجئنا به يَنحني على طبق الشوربة ويَلعقه بلسانه وهو يُكشِّر عن أسنانه. بعد ذلك أخذ يتلوَّى ويَنبح، فخفت وجريت إلى حجرة النوم وأغلقت الباب بالمفتاح.

المحقق: والأولاد ... ماذا فعَلا؟

الزوجة: لا أعرف ... لكنَّني سمعتهما يَضحكان.

المحقق: يَضحكان؟ استمرِّي. ماذا حدث بعد ذلك؟

الزوجة: قلت لك إنني أغلقتُ باب حُجرة النوم بالمفتاح.

المحقق: ولكنَّك سمعتِ على الأقل.

الزوجة: نعم، سمعت باب الشقة يُفتح ويغلق بعنف شديد. ثم سمعتُ بعد ذلك أنهم قبضوا عليه وهو يَنبح في الشارع.

المحقق: ألم تُفكِّري في الخروج وراءه؟

الزوجة: ولماذا أخرج وراءه؟

المحقق: وأولادك.

الزوجة: لا أعرف. لم أجدهما فقط.

المحقق: ألم تسأليهما بعد ذلك؟

الزوجة: نسيت.

المحقق: وماذا فعلتِ عندما علمتِ أن زوجك قُبض عليه؟

الزوجة: وماذا كنتَ تُريد منِّي أن أفعل؟

المحقق: أنا الذي أسأل يا ست مفيدة.

الزوجة: لم أفعل شيئًا طبعًا.

المحقق: وما رأيك فيما حدث؟

الزوجة: وما الذي حدث؟

المحقق: السُّعار الذي أصيب به.

الزوجة: رأيي أنه كان مُصابًا به باستمرار.

المحقق: هل سبق أن نبَح أحدًا أو عضه؟

الزوجة: من الطبيعي أن الكلب يَنبح ويعض.

المحقق: تعلمين أن مدينَتَنا بلا كلاب. ألم تُحاوِلي أن تسأليه.

الزوجة: ولماذا أسأل؟ طول عمره كلب وابن كلب.

المحقق: السُّعار مرض لا يأتي إلا بالعدوى.

الزوجة: مدينتنا رعاها الله بلا كلاب.

المحقق: ولكن لا بد أن يكون عضَّه كلب. فأين قابل زوجك الكلب الغريب، أو أين قابل الكلب الغريب زوجك؟

الزوجة: لا أعرف.

المحقق: هل سافر زوجك خارج المدينة؟

الزوجة: لا أعرف.

المحقق: هل استقبل ضيفًا غريبًا في بيته؟
الزوجة: لا أعرف.
المحقق: هل لديك أقوال أخرى؟
الزوجة: لا.
المحقق: إذن وقِّعي هنا. (للكاتب) وتمَّ إقفال المحضر في الثالثة وعشر دقائق، وأمرنا باستدعاء الابن والابنة لسؤالهما (تنهض الزوجة قائمة وتنصرف).

غريب (يتقدم): باب التحقيق سيُقفل بعد قليل. وأقوال الابن والابنة لا تختلف كثيرًا عن أقوال أمهما. ولما كنا نخاف عليكم من التطويل، فقد اكتفَينا بالمواضع المهمة في التحقيق معكما. أما تفاصيل المحضر فيُمكن الاطلاع عليها في سجلات المحكمة مُقابل عشرة قروش. سأل المحقِّق ابن مأمون الذي يعمل مهندسًا ورجل أعمال هذا السؤال الهام بعد أن وجَّه إليه الأسئلة التقليدية ...

المحقق: ألم تُلاحظ عليه أية أعراض غريبة في الأيام الأخيرة؟
الابن: أنا في العادة لا ألاحظ وجوده على الإطلاق، ولكن (مفكرًا).
المحقق: ولكن ماذا؟
الابن: أذكر أنني رأيته يَبتسِم منذ أسبوع أو أسبوعين.
المحقق: مُتأكِّد أنك رأيته يبتسم؟
الابن: تمامًا ... حتى إنني خفتُ عليه وخفت منه.
المحقق: وما الذي دعاك للخوف؟
الابن: لا أعرف بالضبط ... ولكن كان تصرُّفه غير طبيعي.
غريب: هذا هو أهم ما قاله الابن. أما ما عدا ذلك فكل أقواله تُؤكد أقوال الأم. فقد ضحك هو وأخته عندما سمعا أباهما ينبح؛ لأن منظره كان مضحكًا، كما أنه — مثل أمه — لم يُفكِّر في الخروج وراءه لمنعه من عض الناس أو لإعادته للبيت. أما أخته ...

(تتقدَّم الابنة وتَجلِس على الكرسي أمام المحقِّق.)

المحقق: وماذا فعلتِ عندما رأيتِ أباك يَنبح ويخرج إلى الشارع؟
الابنة: أسرعتُ خلفه طبعًا. لم أُضيِّع ثانية واحدة.
المحقق: حاولتِ أن تَمنعيه من أن يعض الناس ويَنشر العدوى؟
الابنة: أمنعه؟ وهل أنا طبيبة في البلد؟! صحفية يا سيدي.

المحقق: آه، نسيتُ أنك قلت هذا من قبل، أسرعتِ خلفه إذن؟

الابنة: أسرعت خلفه بالكاميرا لألتقط بعض الصور. وبالفعل التقطتُ صورًا نادرة ... أنا متأكِّدة أنها ستُثير ضجة هائلة عندما تُنشر غدًا في مجلة «الإنسان الجديد» ... رجل يتحوَّل فجأةً إلى كلب ويَنبح الناس ويعضهم ... والناس تجري وهو يجري خلفهم ... وينبح ويعض ... ويعضُّ ويَنبح ... ألا ترى معي أنه موضوع صحفي من الطراز الأول ... خصوصًا في مدينة خالية من الكلاب؟

المحقق: أنا مِن رأيك فعلًا.

الابنة: وأن أنفي صحفية بالفطرة؟

المحقِّق: وعيناكِ وشفتاكِ ووجهك.

الابنة (تَضحك ضحكة فاضحة)**:** وساقاي أيضًا ... انظر ... على أحدث مقاييس الجمال ... كنت أعرف أنك شاب ذكي ولطيف. تفضل.

المحقق: ما هذا؟!

الابنة: هذه بطاقتي ورقم تليفوني.

المحقق: هل لديك أقوال أخرى؟

الابنة: كثير ... كثير.

المحقق: أقصد في موضوع السعار.

الابنة: وفي غيره وغيره.

المحقق (بصرامة)**:** إذن وقعي هنا.

غريب: وانتهى التحقيق كما رأيتم وسمعتم. كنت أشعر أنه سيَنتهي على وجه السرعة، وكانت المدينة كلها تُشاركني نفس الشعور. صحيح أن الخبر لم يُعلَن، وكل الصحف والإذاعات ووكالات الأنباء تكتَّمته وكفت عليه ألف ماجور. ولكن أنباء الكوارث تتسرَّب وتَنتشِر كالدخان. وتشخص الأبصار إلى نهاية الكون. وتتعلَّق الأنفاس بكل بادرة. وتتوقف الحياة كأنها تحتضر. عكف المحقِّق بعض الوقت على محضر التحقيق. وأسرع المخبر إليه وهمس لحظات في أذنه. ثم انطلق الصوت الغامض المجهول من مكبر الصوت: هنا إدارة المدينة. هنا الإدارة العليا. مدينتنا بلا كلاب. الإشاعة المسمومة لا بد أن تتبدَّد كالفقاعة. ماذا فعلت أيها المحقق؟ أين التقرير؟ لم هذا البطء في التحقق من إشاعة كاذبة، إشاعة تافهة لا يصدقها الأطفال. الأمير ينتظر. المدينة كلها تنتظر. ليس عندنا وقت. نحن نبني الإنسان الجديد. ليس عندنا وقت ... ليس عندنا وقت.

غريب: وأسرع المحقِّق يردُّ وهو يَلهث ...

المحقق: نعم نعم. صدقتم يا سادتي؟ إشاعة كاذبة وتافهة.

الصوت المجهول: اقرأ التقرير!

المحقق: في الحال، سأقرؤه في الحال! وبما أنَّ مدينتَنا كما هو ثابت ومعروف خالية من الكلاب. وبما أن المسعور — كما هو ثابت ومعروف — رجل فقير وضعيف ولم يُسافر إلى خارج البلاد كما اتَّضح من أقواله ... معذرة ... كم اتَّضح من أقوال الشهود، فإنني أرى أن الكلب ليس كلبًا، وأن الأمر كله مجرَّد مزاح سخيف، ونُكتة بذيئة.

صوت من الجمهور: أحتجُّ! كيف تكون مجرَّد نكتة بذيئة ومزاح سخيف؟

صوت آخر: هذه بذاءة وسخف.

غريب (يُهرول إلى مقدمة المسرح)**:** أرجوكم ... أرجوكم.

صوت ثالث: هل تركنا بيوتنا لنسمع نكتة؟

صوت رابع: إنها مأساة ... مأساة.

صوت خامس: مأساة مُضحكة.

صوت سادس: رأيي أنها مهزلة.

صوت آخر: مهزلة مُبكية ... أين الرقابة؟

صوت: وأين الاحترام الواجب لعقول الناس؟

غريب: انتظروا ... أرجوكم انتظروا ... التقرير لم يَكتمل.

صوت: أليس هذا ما قلته في البداية؟

غريب: نعم. نعم. وهذا ما أقوله الآن.

صوت: نريد الحقيقة!

غريب: وأنا أيضًا أريدها ... أنا نفسي أدعوكم للبحث عنها.

أصوات: أعطوهم فرصة.

أصوات: الصبر يا هوه.

صوت: هاو ... هاو ... هووووه!

غريب: تفضَّل يا حضرة المحقِّق.

المحقق: ويُؤكِّد هذا الرأي ما ثبت لنا من كلام الشهود من أنه مُعلِّم قديم ورب أسرة. وهو مثل غيره من آلاف الناس في آلاف الأسر، في مدينتنا وفي سائر المدن، لا يستبعد أن يلجأ لهذا المزاح السخيف من باب التسلية.

صوت من الجمهور: تسلية؟ كل هذه تسلية؟

صوت آخر: لا نُريد التسلية ... نُريد المسرح الجاد.

صوت ثالث: نريد الحقيقة.

صوت رابع: هل انتهى التحقيق؟

غريب: أرجوكم ... أرجوكم ... انتهى التحقيق ولم تنتهِ القضية.

صوت من الجمهور: وماذا بقيَ منها؟ الرجل الآن في المشرحة.

غريب: معك الحق ... الرجل في المشرحة ... والقمر في السماء (يسمع صوت نباح كلاب في الخلفية).

صوت آخر: والكلاب ما تزال تنبح.

غريب: أجل ... أجل ... مع أن مدينتكم بحمد الله خالية من الكلاب ... أما كلبنا المسكين فقد تكلَّم.

أصوات: تكلم؟

أصوات: عِشنا وشفنا الكلاب تتكلم.

صوت: وتُمثِّل وتَنطق بالحكم.

صوت: هاو ... هاو ... هـ... م م ... (ضحك).

غريب: أرجوكم ... اسمعوه قبل أن يموت ... هذه آخر رغبة في نفسه ... يا مأمون ... يا مأمون ... معذرة ... نسيت أنه محبوس في حُجرته ... لا بدَّ أن أذهب إليه وأساعده ... لحظات ... لحظات وأرجع لكم.

المشهد السابع

البُكاء على الصدر

(غريب يظهر وهو يجرُّ عربة بيضاء ذات ثلاث عجلات مما يُستخدم في نقل المرضى. يتكلَّم وهو يهز العربة للأمام والخلف ... بعد التمهيد يتَّجه إلى حُجرة المعلم ويأتي به على المسرح ... يُلاحظ أن إيقاع المشهد يتَّسق مع إيقاع الموت التدريجي للمريض.)

غريب: لا ... لم تَنتهِ القضية. تم التحقيق وما زالت القضية مفتوحة. وعشت مع صاحبي عشرين يومًا في المستشفى، أطعمه وأجفِّف دموعه وشفتَيه، وأُمدِّده على الفراش، وأشاركه صمته وبحَّته وغصَّته. كان علينا أن نبقى تحت الملاحظة والعلاج. حبَسُوه وحبسوني حتى يتأكَّدوا من وجود السعار أو عدمه. أخذوا العينات وأعادوا التحليل مرةً ومرة. الأطباء والممرضون والمُمرضات يَدخلون علينا ويخرجون. الشفاه تمتد إلى الآذان، والأسرار تَطير في الهواء والحرس يرُوحون ويجيئون على الأبواب. طالت فترات صمته في الأيام الأخيرة. جرت الدموع في عينَيه وتساقطت أكثر من مرة. بدأت أفهم نظراته الخرساء إليَّ. تعلمت كيف أترجمها إلى كلمات، وأُحوِّل شهقاته وزفراته وبحَّاته إلى عبارات. عبارات تصف وتشكو وتتألم، وأحيانًا تثور وتغضب وتدعو للانتقام. (الأطباء والممرضون والمُمرضات يدخلون أثناء الحديث ويخرجون. يجسُّون النبض أو يَقيسون الحرارة أو يأخذون عينة دم أو يفتحون العيون ويفحصُونها ... إلخ، المريض يُخرج أصواتًا مبهمة، ممدودة أو متقطِّعة، تشبه الصفير الخارج من ناي الحنجرة المشقوقة أو من شعب الصدر

المأزومة، وأحيانًا تبدو كأنها دمدمة أشباح أو زمجرة أُسود أو مواء قطط. غريب يَنقلها أولًا بأول إلى كلمات وعبارات مفهومة، خصوصًا وأن المريض يتمكَّن في أحوال قليلة من نُطق حروف مهشَّمة من كلمة أو جملة ... المريض تَخرُج منه أصوات هادئة ... يَفهمها غريب أولًا ثم يحولها إلى حروف وكلمات).

غريب: كل شيء يَنتهي يا غريب. الصداقة والمرض والعمر ... تمنَّيت لو انتهيت على صورة أخرى، لكنَّني رضيت دائمًا وأنا الآن راضٍ. كل شيء سيَنتهي كما بدأ. وعجلة الميلاد والموت لا بد أن تتوقَّف. نعم يا غريب. رضيت وسلمت. ستون عامًا وأنا راضٍ ومُسلِّم، اللقمة الفقيرة، والكسوة الحقيرة، والرغبة الكسيرة. هل سمعت عن الخلد أو السنجاب؟ عن جمل أو أسد يَنكمِش قليلًا قليلًا حتى يُصبح فأرًا أو أرنبًا؟ يدخل جُحره ولا يخرج بحثًا عن رزقه إلا بعد أن يُطلَّ برأسِه ويطمئن. وها هم حكموا عليَّ أن أُصبح كلبًا ... لكن المدينة خالية من الكلاب (يَسمع من بعيد صوت نباح يتعالى شيئًا فشيئًا أثناء المشهد.) أنا راضٍ أيضًا. لكي لا يكون أولادي كلابًا. لكي لا يُعامَل الصغار والذين سيُولَدُون بعدنا معاملة الكلاب (يتردَّد النباح) هل جربت يا غريب أن تمشي في الظل؟ أن تتخفَّى بجوار الحائط؟ أن لا تتدخَّل في شيء؟ يتغير الأمراء فلا تجسر أن تسأل إن كان أميرك ملكًا أم شيطانًا، بشرًا أم حيوانًا. تَبتلِع الحرمان قَطرة قطرة، تقص أجنحة الأمل ريشة ريشة، تَستغني عن الرغيف بلُقمة، وعن القماش المُستورَد بخرقة، وعن مسكن الآدميِّين بجحر النمل. هل جربت أن تعيش بجانب امرأة تبغضك ويصفرُّ وجهها وتَنطفئ عيناها كلما رأتك؟ كل نظرة من نظراتها تقول لك: متى أستريح منك؟ (تظهر الزوجة بملامحها القاسية وهي تصيح ...)

الزوجة: كلب ابن كلب (المعلم يتشنَّج ويتلوَّى فينحني عليه غريب ويمر بيديه على وجهه وذراعيه وساقيه، تَنتحي الزوجة ناحية اليسار وتقف).

غريب: هل جرَّبت أن تتحمَّل البذاءة التي يقذفك بها أقرب الناس إليك؟ تتوالى عليك حجارتها كل يوم، في البيت والعمل والشارع والدكان، حتى في الخلاء يتذبذَب بها الهواء ويتخلخل؟

(يَظهر الابن والابنة ... تتبعهما ناظرة المدرسة.)

الابن (لأختِه)**:** أبوكِ أصبح مُسخة.
الابنة: يضحك الناس علينا ولا يَضحك أبدًا.

الابن: تصوَّري أنني رأيته يَبتسِم من أسبوعين؟
الابنة: لا بدَّ أنه حلم بقبض المعاش.
الابن: البقشيش الذي أُعطيه للبارمان أكبر منه.
الابنة: مُشكلتي الآن هي كيف أُقدِّمه لخطيبي.
الابن: بسيطة، خطيبك يُقدم له عظمة (يَضحكان ويقفان بجوار أمهما).
غريب: ترى هل فهم شيئًا مما دار حوله؟ ظل سادرًا في ضبابه حتى ظهرت ناظرة المدرسة وهي تسبُّ وتلعن. تلوَّى وتأوَّه وغطى عينَيه ثم أشار إليها مذعورًا بينما أخذت تصيح ...
الناظرة: نظرتي في الناس لا تَخيب ... من الأول أدركت ... من أول يوم عرفت أنه قرد أو كلب، ليتَني بلَّغت الشرطة عنه. ليتني بلغت الشرطة عنه (تنضمُّ إلى الصف الذي يضم الأم والابن والابنة وتقف مُتحفِّزة للصياح أو الهجوم ... وفجأة تَتشابك أيديهم وأذرعهم ويَرقصون رقصة الأشباح وهم يُغنُّون بأصوات صاخبة).
الابن: نحن رجال المال! رجال الأعمال! نَلعب بالدولار وبالدينار والبيضة والحجر على حسب الأحوال.
الابنة: أهوى اللذات المشروعة.
واللذات الممنوعة.
أطمح للشُّهرة والمجد الساطع.
وأحبُّ ظهوري في الصورة.
كالنجم اللامع!
ناظرة المدرسة: أنا راهبة العلم وأفتح معبدَه لزيارة كل الناس.
من يدفع أكثر أدخله قدس الأقداس!
الأم: أسرع يا ولدي لا تُبطئ!
أعطِني الشيك.
فغدًا ننتقل إلى الفيلا،
وغدًا نفتتح البوتيك.

(تتشابَك أيديهم ويسرعون بالرقص وهم يغنُّون.)

المال المال.

المجد المجد.
أعطِني الشيك.
الفيلا والبوتيك.
سبِّح للمرسيدس. واركع للبيجو.
اصعد للقمة فوق رءوس الضعفاء.
والْعَق أحذية السلطة، كل الأحذية سواء.
سبح للدولار.
واركع للدينار.
المجد المجد ... إلخ.

غريب: أخذ يتلوَّى بشدة ... فهمتُ منه أنه يُريد أن يقول: هل جربت أن تُنزع عنك كرامتك كما يُنزَع جلد المسلوخ؟ وأن يتفرج الناس على دمك المنزوف ويتطوعوا كذلك بشهادة الزور؟ في المدن الأخرى تدان المدينة كلها لو جُرح إنسان واحد، وفي مدينتنا التي خلَتْ من الكلاب ... صار البشر ... لا. لا ... صرتُ أنا وحدي ... تلوَّى بقسوة ووحشية. هبَّ من جلسته فحاولتُ بكلِّ قوتي أن أُعيده إلى الكرسي. ومددتُ يدي فشددتُ رباط الحزام. لكنَّني في لحظة كالرعد أو البرق أبصرتُ شمشون يَهدم المعبد ويصرخ بين الأنقاض. انطلق ينطح الحيطان ويتلوَّى ويَنبح ويَزحف على أربع، ثم يقوم على قدمَيه ويَخبط على الكراسي والنوافذ والجدران كعملاق مجنون أو جمل غاضب يَهدر ويَسيل الزَّبد من شدقَيه. كانت صرخاته المُتقطِّعة تكاد تنطق: ماء ... أريد أن أشرب ... لكن التعليمات كانت مُشدَّدة. والمُمرضون أسرعوا فشدوا وثاقه بالحبال ... بعد قليل مرت العاصفة ورأيته ينظر إليَّ ويبتسم. كانت في نظراته دعوة للقُرب منه ... اقتربت فأشار إلى أذني. ملت على فمه فقال: هذه وصيتي ... وظلَّ صوته يَتحشرج ويصفرُّ ويشهق وينشج بالبكاء. انحنيت عليه وأسندته إلى صدري ورحت أُحوِّل نباحه وعواءه إلى حروف وكلمات: وصية كلب لمدينة بلا كلاب. سيأتي يوم تغيب فيه شمسك. سيأتي ليلٌ يَختنِق فيه قمرك. انظروا! ... ها هو النور يَنطفئ، والنواقيس تجن، والأبراج والمآذن والعمائر تتداعى وتنهار. السحب تلبَّدت في السماء. والبرق أرسل النذير. الساعات توقفت. والمدينة انكفأت على ظهرها وراحت تحتضر. تعاوت الكلاب والذئاب من كل ملَّة على الجثمان العجوز المهيب. زحفت السيول من كل اتجاه. وغرق نوح مع سفينته فلم تنجُ إلا الفيران. والفيران انقضَّت عليها جوارح النسور والصقور. أيتها المدينة التي تزينت بالأنوار الصاخبة والأصباغ الكاذبة. أيتها العجوز التي

ارتمت في أحضان العُشاق المزيَّفين. وضعتِ في يديكِ سلاسل العبودية، وأبحتِ كُنوزكِ للجلادين والدجالين. قطعوا ثديَيك ومزَّقوا لحمكِ وألقَوه للكلاب. نزعوا عيونك وسلَّموها للصوص الآثار. أغوَوكِ بالحُليِّ والخلاخيل المزيَّفة فسقطتِ في مُستنقَع الديون. سلخوا جلدك فمشَيتِ عارية بين الشعوب. قبَّحوكِ باسم الجمال، شوَّهوكِ باسم الفن، جوَّعوكِ باسم العدل، مصُّوا دمك باسم العلم، رجموك وصلبوكِ وخنقوكِ باسم الإيمان، وانفرَدُوا بك في الظلام، ومزَّقوا ظهرك بالسياط. انطفأت شمس الحقيقة في سمائك وغابَت عنها نجوم القوانين. افتحي عينيك أيتها العجوز. قاومي السيل وطاردي الكلاب ... طاردي الكلاب! طاردي الكلاب!

لم تبقَ منه سوى أنفاس لاهثة في صدر يعلو ويهبط. سقطت ذراعاه على جانبي الكرسي وتلوَّى لحظات بلا صوت وأغمض عينَيه. جففت العرق على جبينه ووجهه ومسحت الزبد المتراكم على شفتَيه. رفعت رأسي فرأيت الطبيب والممرضين والمخبر والمحقق يقفون على رءوسنا. قال الجميع بصوت واحد: مات. سحب اثنان من المُمرضين العجلة البيضاء ومدَّداه على محفَّة وقالا: مات. دَوتْ مُكبرات الصوت ونادى صاحب الصوت الغامض المجهول: مات الكلب الوحيد. أيها المحقِّق! أغلق باب التحقيق ... وأمسكَ المُحقِّق بورقة طويلة أخذ يقرأ منها ...

المحقق: بعد إعداد التقرير السابق مات المسعور في المُستشفى. علمتُ من صاحبه الغريب أنه في الأيام الأخيرة كان يخاف الماء، ويسيل الزبد من شدقَيه. وعلمتُ أيضًا من الأطباء الذين أشرفوا على علاجه أنهم وجدوا عنده أعراض المرض، والأعراض لا أهمية لهما ما دام المريض نفسه قد مات. وبمَوته سقطت الدعوى نهائيًّا وأُغلق باب القضية.

صوت الجمهور: ولكن القضية لم تنتهِ.

غريب: المحقِّق والأمير أغلقا الباب.

صوت ثالث: وأنت؟ ماذا ستفعل؟

المحقق: نسيت الملحق المضاف للتقرير (يقرأ).

أما عن صاحبه الغريب فقد ثبت بعد مراقبتِه عشرة أيام أنه لا يحمل العدوى، كما ثبت أيضًا أنه لا يتجسَّس لحساب مدينة أخرى؛ فهو شيخ غريب وعابر سبيل فقير، لذلك رُئي أن يَكتفي بإبعاده.

صوت: والحقيقة؟ ماذا عن الحقيقة؟

صوت: نُريد أن نعرف.

صوت: هل المدينة مسعورة والذي مات هو الإنسان الوحيد.
صوت: أم هو المسعور والمدينة خالية من الكلاب؟
أصوات: الحقيقة! نريد الحقيقة!
غريب: اسألوا أنفسكم ... ابحثوا عنها بأنفسكم.
صوت: وأنت؟
غريب: لا مفرَّ، اليوم قبل غروب الشمس.
صوت: إلى أين تذهب؟
غريب: إلى مدينة أخرى (يتقدَّم المخبر ويضع القيد في يديه. يمدُّ يده بالسلام، يتذكر القيد، يُحييه برأسه ثم ينصرف. الغريب يَنظر للسماء ويقول وهو يتقدَّم للجمهور).
غريب: القمر ما يزال في السماء ... والكلاب ما تزال تَنبح ... ولكنَّها لن تعضَّه. لن تعضَّه ...

بينما يتردَّد صوت يتلو بيت الشِّعر الآتي مُحاولًا أن يعلو فوقها:

لقد نبَحوني وما هِجتهم
فما أدركوا غير ضوء القمر!

يُعاود الراقصون رقصهم ويستأنفون الغناء بصوت قوي يُنافس أصوات الكلاب التي تتداخل مع أصوات الغناء والرقص على إيقاع الأبيات التي سمعناها من قبل. ولكن على غير الترتيب السابق ...

صوت: المال المال ...
المجد المجد.
صوت: أعطِني الشيك ...
الفيلا والبوتيك ...
صوت: نحن رجال المال.
رجال الأعمال.
نلعب بالدولار وبالدينار،
والبيضة والحجر على حسب الأحوال!
صوت: نرهن أنفسنا من أجل ريال.
صوت: المال المال!

صوت: سبح للدولار،
واركع للدينار!
صوت: للمرسيدس والبيجو!
صوت: واصعد للقمة فوق رءوس الفقراء!
صوت: فوق رقاب الضعفاء!
صوت: والْعَق أحذية السلطة.
صوت: كل الأحذية سواء!
صوت: المجد المجد المجد.
صوت: المال ... المال ... المال.
صوت أخير: أعطِني الشيك ... الفيلا والبوتيك.

هنـــداوي